الفصل الأول
معالم العصر الجاهلى

١. حدود الزمان .

٢. مفهوم الجاهليَّة .

٣. طبيعة المكان .

obeikandi.com

obeikandl.com

أولاً:حدود الزمان :-

جرى العرف بين نقاد الأدب العربي أن العصر الجاهلي يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو : قرن ونصف ، أو قرنين من الزمان على أكثر تقدير أما المرحلة التى تسبق هذا التاريخ ، فلا نكاد نعرف عنها شيئًا صحيحًا ، أو موثوقًا به ، إذ ليست عندنا نصوص أو أخبار يزيد عمرها عن مائة وخمسين عامًا قبل البعثة المحمدية .

وهنا لابد أن نشير إلى أن أقدم النصوص المتاحة لنا ، ترجع إلى مطلع القرن السادس الميلادي ، أو نهاية القرن الخامس ، حيث تشير هذه النصوص إلى تلك الحروب الطويلة التى استمرت إلى ما يقرب من أربعين سنة بين قبيلتي : بكر وتغلب ، وهو ما يعرف في التاريخ الأدبي " بحرب البسوس " وقد ظهر عدد من الشعراء في هاتين القبيلتين نتيجة لتلك الحروب ، وكان منهم : المهلهل بن ربيعة[1] زعيم قبيلة تغلب ، بعد مقتل أخيه كُليب وهو يعد من أقدم الشعراء العرب الذين بقيت لنا بعض آثارهم ، كما ظهر في قبيلة بكر شاعر آخر ، وهو" المرقِّش الأكبر "[2] وعاصرتهما الشاعرة الجاهلية القاتلة المقتولة (قتل زوجها بيد أخيها) " جليلة بنت مرة البكرية" .

- وقد أكد " كارل بروكلمان " حقيقة قصر عمر العصر الجاهلي حيث يقول : " إن أقدم ما نعرفه من الشعر ، المستند إلى مصادر صحيحة نسبيًا ، لا يمتد إلى المئة السابقة على مولد النبي محمد ٠٠ " - صلى الله عليه وسلم- .
- أما علماؤنا العرب القدامى ، فقد جاءت أقوالهم في هذا الجانب ظنية تحتاج إلى دليل .

يقول الجاحظ في الحيوان : "٠٠أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حُجْرٍ ، ومهلهل بن ربيعة ٠٠٠فإذا استظهرنا الشعر ٠٠وجدنا له - إلى مجيء الإسلام - خمسين ومئة عام ، وإذا استظهرنا

١- المهلهل : عدى بن ربيعة بن الحارث التغلبى ، ولُقب بالمهلهل لطيب شعره ورقته وهو خال الشاعر الجاهلي المشهور : امرئ القيس بن حُجْر الكِنْدى .

٢- المرقش الأكبر : عمر بن سعد بن مالك البكري ، ولقب بالمرقش لقوله :
الدار قفْرٌ والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم .

بغاية الاستظهار، فمئتى عام ..."[1] ويقول بن سلاَّم : " ... وإن المُهَلهَلْ بن ربيعة هو أول من قصَّد القصائد، وذكر الوقائع ..."[2] .

- ونظرًا لعدم تحديد بداية العصر الجاهلى تحديدًا دقيقًا في كلام الناقدين السابقين، على الرغم من قربهما من تلك الفترة نجد أن بعض الباحثين قد ذهب إلى أن البحث في العصر الجاهلي الآن، إنما هو ضرب من الحَدْس والتخمين، اللذين لا يعترف بهما المنهج العلمى.

لكن الأمر الواضح يقينا هو أن العصر الجاهلي ينتهي بظهور فجر الإسلام وبعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

ثانيًا: مفهوم الجاهلية:-

يطلق اسم الجاهلية، ويراد به تلك الفترة التى تسبق ظهور نور الإسلام، ولا يطلق هذا الاسم - على زمن ما - بعد بعثة النبي (ﷺ).

فالعرب قبل الإسلام كانوا جاهلين، وفي زمن جاهلي ... فما مفهوم الجاهلية هنا ؟!

وهل المقصود بها الجهالة الدينية ؟ وهل الجاهلي هو الوثني أو اللا ديني في مقابلة المسلم ؟

لا نكون مخالفين للصواب إذا قلنا : إن الجاهلية تعنى ذلك مباشرة فالعرب قبل الإسلام كانوا في ضلال ديني، وحيرة عقدية، وذلك بسبب الزيف الذي ابتدعته أيديهم حين امتدت إلى الديانات السماوية فغيرت وبدلت، فلقد بدل اليهود شريعة الله وكتبوا الإنجيل بأيديهم وزعموا أنه من عند الله، ولقد أشرك النصارى - أيضًا - بالتثليث، وابتدعوا ما ليس من دينهم، ثم كان أن شاعت الوثنية في الجزيرة العربية، وأصبح لكل قبيلة إلها صنمًا حتى اختلطت الأمور، وفسدت العقائد حتى لقد أحاطوا الكعبة المشرفة التى هى رمز التوحيد بعديد من الأصنام والأوثان ....

ولا شك في أن ذلك كله كان منتهى السفاهة والضلالة والحمق والجهالة.

١- الحيوان، جـ١ / ٧٤ ،تحقيق، القاهرة ١٩٣٨ م .

٢- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحى، صـ٣٣ تحقيق محمود شاكر، دار المعارف القاهرة ١٩٥٢ .

وقد يتساءل بعض الناس : هل الجهالة - هنا - من الجهل الذي هو نقيض العلم ؟

بالطبع كلمة الجاهلية لا تعنى ذلك على إطلاقه ، فمعلوم أن عرب الجاهلية كانت لهم علوم ومعارف بسيطة ، وهذه العلوم والمعارف كانت تنبئ عن مستوى ما من الوعي بالنشاطات الإنسانية آنذاك ، فكانت لديهم معرفة بدائية بالطب ، والأعشاب ، والنجوم ، وكانوا ذوى دقة متناهية في علم الأنساب ، والقيافة ، والعيافة ، ومع كل ذلك ، فلا نطلق لفظ العلم على هذه المعارف إلا على سبيل التسامح والتجوز وإنما نسميها معارف أتت لهم عن طريق الفطرة والخبرة بشئون الحياة البدوية .

وفي النهاية أميل إلى القول بان الجاهلية عندهم كانت تعنى : التحامق والسفه والرعونة ، والنزق ، والفظاظة وسرعة الغضب وحدّة المزاج ، والتسارع في الدعوة إلى الحروب .

يقول شاعرهم قريط بن أنيف مفتخرًا بقومه :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ∴ طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ∴ في النائبات على ما قال برهانا

فالمعارك كانت تدور في البيئة العربية على أوهن الأسباب ، وتظل رحاها تحصد الأرواح والنفوس سنين طوال ، والحال أنهم لو نظروا - بعين العقل - إلى سبب تلك الحروب لاستطاعوا أن يتجنبوا ويلاتها ، والوصول إلى حلول سلمية كريمة تريح جميع الأطراف .

ولك أن تتأمل معى قول الشاعر الجاهلي " عمرو ابن كلثوم " وهو يتعالى على الناس بسطوته وشدته ، ويفتخر عليهم بجاهليته ، وجهل قومه [1] .

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا ∴ فنجهل فوق جهل الجاهلينا

١- شرح المعلقات السبع ، الزوزنى / ١٧٨ ، ط ٢ - بيروت ١٩٧٢ .

ويمدح حسّان بن ثابت صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول [1]:-

لا يجهلون وإن حاولْت جهلَهُمُ في فضل أحلامهم عن ذاك مُتَّسعُ ، بل إن الفرزدق ليفتخر على جرير بجهل أهليه ، فيقول [2] :-

أحلامُنا تزنُ الجبال رَزانةً ∴ و تخالنا جنًا إذا ما نجهلُ

فيرد على شاكلته ـ جريرُ مناقضًا [3] :-

أحلامُنا تزنُ الجبال رَزانةً ∴ ويفوق جاهلنا فِعالَ الجُهَّل

ومما تقدم يظهر لنا في وضوح - أن الجهالة التى يوصف بها العصر الجاهلي ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، أو من الجهل الذي بمعنى فساد العقيدة ، وإلاّ لما أقدم واحد من هؤلاء الشعراء على الافتخار بها في شعره ، وهل هناك إنسان يفتخر على الناس بعدم المعرفة ؟ أو هناك من يفتخر على غيره بفساد عقيدته ؟

ولعل مفهوم الجَهالة الذي رجحناه من قبل ، واطمأنت إليه نفوسنا هو الذي يُفهم من قول الرسول (ﷺ) لأبى ذر حين عَيَّر رجلاً بسواد أمه : إنك امرؤ فيك جاهلية !

فالظاهر في كلام المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يعنى العصبية الحمقاء ، والتهور ، وسرعة الغضب .

ثالثًا : طبيعة المكان :-

الإنسان ابن البيئة ، وصوتها المدوّي ، أو هو صورة صادقة الملامح لها ، فالبيئة قادرة على رسم ملامح هذا الإنسان ، وتشكيل أنماط حياته بمُناخها وتضاريسها .

نعم قد يختلف تأثير البيئة من فرد لآخر ، أو من جماعة إلى جماعة أخرى ، بسبب ظروف معينة أو أسباب خاصة ، لكن - مع ذلك - للبيئة العامة تأثيرها القوى

١- ديوان حسان بن ثابت ، محمد إبراهيم جمعة / ٨٢ ، الطبعة الثانية ،سلسلة نوابغ الفكر العربى رقم ٣٤ ، ط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١ م .

٢- الفرزدق ، د ٠ ممدوح حقى / ٦٠ ، ط ٣ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢ م .

٣- جرير ، محمد إبراهيم جمعه / ١٠٩ ، ط٣ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢ م

والمباشر على أفرادها ، حيث تخلق فيهم نوعًا من السمات المشتركة التى تربط الجميع برباط موحد .

وكلما كان المحيط البيئي أقرب إلى الفطرة (التشابه) كبيئة شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، كلما كان تأثير ذلك المحيط أحدّ وأظهر وأعمق في سكانه .

- أما بالنسبة لموقع شبه الجزيرة العربية الجغرافي : فهى تقع في الجنوب الغربي لقارة آسيا ، وتمتد في رقعة واسعة من الأرض ، ذات بقاع وأودية متباينة .. يحدها من الشرق : الخليج العربى ، وبحر عمان .

ومن الغرب : البحر الأحمر ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الشمال : العراق وبلاد الشام وتدخل في حدود شبه الجزيرة العربية ، تلك الأماكن التى قامت فيها دويلات عربية ، كإمارة المناذرة التابعة للفرس في الحيرة ، وإمارة الغساسنة التابعة للروم على حدود الشام .

ولعله من الصعب إصدار حكم موحد على هذه البيئات المترامية الأطراف ، ولذا قسّم الجغرافيون شبه الجزيرة العربية إلى أقسام خمسة ، وهى :-

١- اليمن : وتقع في أقصى الجنوب .

٢- الحجاز : الذي يحجز بين تهامة ونجد ، وللحجاز أهمية خاصة ؛ لوجود بيت الله الحرام فيه (الكعبة) ولوقوعه على الطريق التجارية التى تربط اليمن بشمالىَ الجزيرة .

٣- تِهامة : وهى منطقة ساحلية ضيقة نسبيًا ، موازية للبحر الأحمر .

٤- نجْد : وهى مساحة واسعة تحيط بها الصحارى من ثلاث جهات ، ومن أشهر معالمها : صحراء الأحقاف ، أو الرّبْع الخالي .

٥- اليمامة : وتسمى العُرَيض ؛ لاعترَضها بين نجد واليمن .

- أما من ناحية المناخ : فمناخ شبه الجزيرة العربية في جملته : حارٌّ ، شديد القيظ أحيانًا ، على الرغم من وجود مناطق باردة في الشمال ، ومناطق معتدلة في المرتفعات الجنوبية .

والسمة الظاهرة هى الجفاف ، وقلة الزراعة ، فشبه الجزيرة عمومًا أرضٌ صحراوية قاحلة ، قليلة المياه ، وليست الزراعة فيها مصدرًا للرزق اللهم إلاّ في اليمن حيث تجود الأرض لهم بخيرها وثمرها .

والأمر يختلف - كثيرًا - في البوادي ، فحين ينزل الغيث ، تهتز الأرض ، وتُخرج نباتات مختلفة معلنة عن ظهور الكلأ الذي ترعاه أنعامهم ، ويقيمون حوله أيامًا ولياليَ ، ثم تقتلع الحاجة خيامهم ، وتقذف بها إلى مكان آخر سعيًا وراء الماء والعشب .

ومجمل القول :-

أن المجتمع الجاهلي مجتمع بدوى رعوي ، تعيش قبائله على الارتحال ، وانتجاع أماكن الخير ، مما يأكل الناس والأنعام .

أضـواء على الشعر في العصر الجاهلي

● الكلام العربي وتقسيمه :-

تطلق كلمة (أدب) على الكلام العربي ، وقد مرت كلمة الأدب هذه بعدة معانٍ حتى وصلت إلى معناها الذي هى عليه اليوم .

ففي العصر الجاهلي : أطلقت كلمة (الأدب) وأريد بها الدعوة إلى الطعام ، والتهذيب ، كما دلت على معنى التهذيب والتربية في ظل الإسلام كما في قول المصطفى (ﷺ) : " أدبنى ربى فأحسن تأديبى " .

ولم يقتصر معنى كلمة الأدب على هذا الحد ، بل اتسع مدلولها فأصبحت تطلق على تعليم الأخبار ، ورواية الشعر ، ثم شملت كل ما ينتجه العقل من شعر ونثر .

وأخيرًا تحدد معنى كلمة الأدب ، فأصبحت تدل على التعبير باللفظ الجميل ، عن المعنى المثير للعواطف المتأثرة بالمشاعر المؤثر في القارئ أو السامع .

* * * * * * * * * * * * * *

أقسامه :-

ينقسم الأدب إلى قسمين كبيرين هما : (١) الشعر . (٢) النثر .

أما الشعر فهو ذلك الكلام الموزون المقفى ، المنبعث عن عاطفة ، المعبر عن المشاعر والأخيلة المثير لعواطف القراء أو السامعين ومشاعرهم .

* وأما النثر :-

فهو ذلك الكلام المنمق الخالي من الأوزان المعروفة ، الذي رُوعي فيه تنسيق الألفاظ ، وترتيب الجمل ، والاعتماد على العقل في تخير المعاني وإبرازها .

إذن ، فالفرق بين الشعر والنثر : هو أن الشعر يكون الاعتماد فيه على العاطفة والخيال ، أما النثر فأكثر الاعتماد فيه يكون على العقل والمنطق .

وسوف نطل الآن على الشعر الجاهلي إطلالة سريعة ، وذلك من خلال عدة محاور :

١ - أوَّلية الشعر الجاهلى :-

ليس من شك في أن الشعر الجاهلي صنو الغناء ، فثُربتهما واحدة و هدفهما واحد فمن قال الشعر ، قاله ليتغنى به .

وقد قضى اليونان أجيالاً طويلة لا يقولون الشعر إلاّ إنشادًا [١] .

ولعل العرب كانوا كذلك في أقدم أحوالهم ، فنبغ منهم جماعة يغنون بشعرهم كما فعل الأعشى قبل الإسلام ، فقد كان ينظم الشعر ويغنيه ، ولذلك سَمَّوه صنّاجة العرب .

وقال حسان بن ثابت :-

تغنَّ بالشعر إما كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار [٢]

وهكذا مشى الشعر يتسرب في أعقاب العصور حيث ظهر على غفلة من التاريخ في هذه البادية العربية فرتع ما شاء الله بين آفاقها المجلوَّة ، وسمائها الصافية ، ورسم لهذه الأمة الخالدة صفحة ناصعة .

ومنذ ظهر العرب على صفحة التاريخ ، ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرًا صحيحًا عن أولية الشعر[٣] .

ومن يتأمل الشعر الجاهلي ، يجد أن بدايته معدومة ، فلا يعرف أول من لهج بالشعر ، وأطال القصيد .

ويذكر صاحب العمدة : أن أول من قصّد القصائد هو المهلهل ابن ربيعة ، قال الفرزدق بن غالب : ومهلهل الشعراء ذاك الأول[٤] .

وهناك من يرى أن امرأ القيس هو أول من أطال القصائد ، وقال الشعر ، وتبعه طرفة ، وعبيد بن الأبرص ، وقد تكلمت فيما سبق عن هذه القضية في إيجاز غير مخل .

وهكذا انطلقت شاعرية العرب ، تشدو بهذا الفن الجميل لا فرق في هذا بين رجل وامرأة ، أو أمير وصعلوك .

١- تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، جـ ١ / ٥٤ .
٢- العمدة ، لابن عبد ربه ، جـ ٢ / ٢٤١.
٣- الأدب فى العصر الجاهلى ، د٠ عبد الرحمن عبد الحميد / ٥٨ .
٤- العمدة ، جـ ١ / ٥٤ .

وعلى هذا فبداية الشعر الجاهلي غير معروفة ، أو لا يوجد دليل قاطع يحددها ، فتاريخ هذا الفن بدأ متأخرًا ، ومن هنا تضاربت الأقوال ، وتنوعت الاتجاهات فيما ذكرناه من آراء .

وبالرغم من هذا لابد أن نقر بأن الشعر الجاهلي مر بعدة مراحل قبل هذه المرحلة التى وصل بها إلينا ، وهى مرحلة النضج والاكتمال الفني .

وعلى أية حال .. فإن نقادنا العرب يُرهصون - مجرد تخمين لا يستند إلى توثيق - أن الشعر الجاهلي بدأ بمناجاة الآلهة فيما يعرف بسجع الكهان ، وتطور من السجع إلى الرجز ، بعدها .. تحول الرجز إلى حُداء وترنّم ، ثم أُنشدت - مع السنين - الأبيات المفردة ، فالمقطّعات القصيرة ، فالقصائد الطوال [1] .

٢ - التجويد والارتجال في الشعر الجاهلي:-

لقد أصبح من البدهيات المسلّم بها بين جمهور الدارسين أن الفنون الجميلة -أيا كان جنسها أو شكلها- إنما تعتمد في إنتاجها على ركنين أساسيين :-

- **الأول** : الموهبة والاستعداد الفطري .
- **الثاني** : الخبرة والمرانُ والدُّربة .

فالعمل الأدبي - إذن - يحتاج إلى استعداد طبعي (فطرى) و إلى استرجاع إرادي (موهبى) والشاعر الفنان حين يصور تجربته ، إنما يستوحي إحساسه الباطن ، فيُسلمه ذلك إلى مواكب من الصور والخيالات ، يتحرر فيها - شيئًا ما - من الحياة الشعورية الواعية .. بيد أنه في الوقت نفسه يُحسُّ ويعقل ، وينتقى ويختار ، ويمتاح من فكره ومخزون ذاكرته ، على الأقل .. كى يصطنع اللغة التى يصور بها الهامه ، أو يجسم بها أحلامه .. إنه يحلق في أودية الخيال ، ويهيم في عالم اللامحدود ، ولكنه مدرك لما يقول ، يصطفى صورهُ ، ويهذب لغته .

ومعنى ذلك .. أن الأعمال الشعرية إرادية ، وغير إرادية في آن واحد !!

١- امرؤ القيس ، د. طاهر مكى / ١٨٢ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٨م .

- **إرادية** .. لأنها ترجع إلى عناصر عقلية ، تتجلى في الانتباه الانتقائي ، وفي تحليل الصور وتركيبها ، وفي تداعى الأفكار وترتيبها ، ثم بعد ذلك في المعاودة ، والتنقيح والتجويد .
- **وغير إرادية** .. لأنها ترجع إلى مركبات انفعالية وجدانية ، تصعب السيطرة عليها ، و إلى عناصر متداخلة من الإلهام غير الشعوري تلك التى يستحيل الإبداع الفنى دونها .

ومن هنا .. فلا مفر عندما ننظم الشعر من استعداد فطرى ، وموهبة مُواتية ، ثم عن جهد إرادى واعٍ ، وإنَّ هذا الجهد ليتمثل - كما عرفت - فيما تراه من اختيار اللغة : الألفاظ ، والعبارات ؛ لأن إبراز العواطف في صور لفظية ملائمة ، إنما يحتاج إلى مقدرة وصبر ودُرْبة ومران [1] - ولقد تنبه نقادنا العرب القدامى إلى تلكم الثنائية المُبدعة ، فالجرجانى يقرر في وساطته : أن الشعر علم من العلوم ، يشترط فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدُّربة مادةً له ، وقوة لكل سبب من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرِّز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان [2] .

ليس هناك إذن حدود فاصلة قاطعة بين التجويد والبديهة في الشعر ، فكل الشعراء مجود ، وإلاّ لصار الشعر ضربًا من الخيالات والأوهام ، وكل الشعراء الجديرين بلقبهم مطبوعون موهوبون ، وإلاّ لدخل ميدان الشعر - بطريق التعلم - كل من أراد ، ولصار الشعر علمًا ، يكتسبه طالبوه ، كالفلك والكيمياء .. ولكن لم يقل أحد بذلك .

إننا حين نقول : إن هذه الفئة من الشعراء ترتجل شعرها ، فذلك على سبيل التجوز ، أو على سبيل التغليب فقط ، وليس معنى ذلك أن شعر هؤلاء خلو من عناصر الاختيار والتهذيب ، وليس أدل على ذلك من عدة أبيات لقتيلة بنت الحارس تخاطب بها رسول الله (ﷺ) حين نفّذ الصحابة - رضوان الله عليهم - أمر النبى بقتل أخيها النضر بعد أسره في غزوة بدر [3] .

١- انظر المرأة فى الشعر الجاهلى ، د. احمد الحوفى / ٥٣٩ ، طبعة دار الفكر العربى - القاهرة .
٢- الوساطة بين المتنبى وخصومه / ٢١ ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة ١٩٤٥م
٣- يراجع ذلك فى : الأغانى ، لأبى فرج الأصفهانى ، ١٨ ، ١٩.

يـــا راكبًـــا ، إن الأثيـــل مَظِنـــة ∴ من صبح خامسةٍ ، وأنت مُوفَّقُ

الى أن قالت :-

أمحمـــدٌ ، ولأنـــت نسْـــلُ نجيبـــةٍ ∴ فـي قومهـا ، والفحـل فحـلٌ مُعْـرِقٌ

مـا كـان ضـرّك لـو مننـت ؟ وربمـا ∴ مَـنَّ الفتـى ، وهـوَ المغيظ المُحنِـقُ

أو كنـــت قابـــل فديـــةٍ ، فلنـــأتينْ ∴ بـــأعز مـــا يغلـــو لـــديك ويَنْفُـــقُ

والنضـر أقـرب مـن أخـذت بذلـةٍ ∴ وأحَقُّهـــم إن كـــان عِتْـــقٌ يُعْتَـــقُ

وقد قيل : إن شعر قتيلة هذا أكرمُ شعر موتورٍ ، وأحلم انفعال مفجوعة ، وأعف عتاب مُحنقَة ، وحسبك دليلاً على تأثير هذا الشعر ، وانتقاله من النفس إلى النفس ، ما روى من أن الرسول (ﷺ) لما سمعه قال : لو بلغنى قبل أن أقتله ما قتلته .

ولا نظن هذا الحلم البادئ في هذا الشعر ، وذلك التأثير في نفس الرسول (ﷺ) كان يأتى لو كان شعرها خاليًا من عناصر المعاودة والمراجعة ، وحسن الاختيار .

ونخلص من ذلك ومن غيره إلى أن ، التجويد الشعرى - في العصر- ليس وقفًا على فئة معينة من الشعراء دون فئة ، وإنما هو حظ شائع قد أخذ كل واحد من الشعراء منه بنصيب ، وأمر الطبع والصنعة نسبىٌ يختلف من شاعر لآخر ، والحكم على شاعر بواحد منها تجوز وتغليب .

بير أنه من الإنصاف وإحقاق الحق أيضًا أن نعترف أن الأربعة الجاهليين-

أوس بـن حجـر ، وزهـيرًا ، والحطيئـة ، وكعبًـا كـانوا ذروة التنقـيح ، والصـقل والتهذيب حتى ليمكن أن نقول : إنهم أرسوا دعائم الصنعة الشعرية ، وقننوا هذا الفن ، وورَّثوا خصائصه الفنية للأجيال اللاحقة بعدهم ، يتعلمها التلميذ من الأستاذ ، من لدن الجاهلى أوس بن حُجْر إلى عصرنا الحديث .

٢- لغة الشعر الجاهلى :-

(أ) اختلاف اللهجات العربية:-

يقول أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حميرَ وأُقاصى اليمن بلساننا ... ولا عربيتهم بعربيتنا[١] .

فهذا الكلام كلام صريح ، لا يحتمل شكًا ، ولا يقبل تأويلاً ، إذ يؤكد أنَّ هناك خلافًا لغويًا شديدًا بين عرب الشمال وعرب الجنوب وهو ما يسمى بتعدد اللهجات بين القبائل العربية .

وسوف ندخل - هنا - إلى هذه القضية من أساسها:-

المعروف أن العرب المتحدثين باللغة العربية كانوا قسمين :-

- **الأول** : القسم القحطانى ، أو ما يسمى بالعرب العاربة وهم خالصوا النسب ، مفطورون بسليقتهم على التحدث باللغة العربية ومنازلهم الأولى باليمن ، في جنوب شبه الجزيرة العربية .
- **والثاني** : القسم العدنانى ؛ أو ما يطلق عليهم العرب المستعربة ، وترجع أنسابهم الى أصول ساميَّة غير عربية ، وهم الذين اكتسبوا اللغة العربية اكتسابًا ، ومنازلهم الأولى فى الحجاز ، و شمال شبه الجزيرة العربية .

والرواة متفقون على أن القحطانية عرب منذ خَلَقَهُم الله - عزوجل- وعلى أن العدنانية كانوا يتكلمون لغة أخرى هى العبرانية ، أو الكلدانية ، ثم تعلموا لغة العرب العاربة ، فاندثرت لغتهم الأولى أو كادت ، وثبتت هذه اللغة المستعارة (وهى اللغة العربية- لغة القحطانيين) .

والعلماء يرددون - أيضًا - أن أول من تكلم اللغة العربية من العرب المستعربة (العدنانية) جدهم الأكبر : إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام- .

١- المزهر ، السيوطى ، جـ١ / ١٧٤.

فإذا كان العدنانيون - من أبناء إسماعيل - قد تعلموا اللغة العربية - أصلاً- من أولئك العرب القحطانيين- فكيف بَعُدَت الهُوّة بين قبائل العرب العاربة وقبائل العرب المستعربة إلى هذا الحد ؟

بل إن الإنسان ليسأل نفسه كيف حدث هذا التباعد بين لغة العرب في الشمال ، ولغة العرب في الجنوب ، حتى قال أبو عمرو ابن العلاء : إنهما لغتان متمايزتان ، شديدتا التباعد !!

نعم .. لقد كانت اللغة واحدة في الأصل ، ولكن النظام الخاص الذى سارو! عليه في الحياة والمعيشة كان كفيلاً أن يجعل كل واحد منهم يتخذ لنفسه أسلوبًا معينًا في التعبير ، أو كيفية النطق بالألفاظ ، وأصواتها المختلفة ، وليس هناك شك في أن عربية كلٍّ من القسمين القحطانى والعدنانى قد دخلها - بمرور الزمن - كثير من التغيرات ، فكان الاختلاف الواضح بين عربية الجنوب وعربية الشمال .. وكل من هذين القسمين الكبيرين قد تكاثر فتعددت قبائله ، وتبع ذلك أن صار لكل قبيلة لهجة خاصة ، بينها وبين غيرها من اللهجات بعض الاختلاف ، سواء أكان ذلك في النطق بالألفاظ أم في دلالات الكلمات أم في الأصوات ، أم في إيحاءات المعانى ، كما هو واقع ومشاهد بين جميع الأقطار ، وفي مختلف العصور ، حتى في أرقى الأمم ، وأعظمها تقدمًا ، ففي كل قسم أو محافظة ، أو حىّ تشيع لهجة محلية خاصة ، ومرور الزمن ، وتفرق القبائل واختلاف الظروف مع ما في الإنسان من ميل غرزىّ إلى أن تكون له شخصية مميزة عن غيره .

كل ذلك يستلزم حدوث بعض الاختلافات ، بين اللهجات المحلية ، وإن اتحدت كلها في الأصل الذى نبعت منه .

وقد نتج عن هذه اللهجات الكثيرة اختلاف كبير كان له أثره البين في اللغة.

(ب) تغلب لهجة قريش وأسبابه :-

على الرغم من هذا الاختلاف البين الواضح .. أتى إلينا الأدب الجاهلى في لغةٍ عربيةٍ فصيحةٍ موحدةٍ لا نجد فرقًا فيها بين شاعرٍ من الشمال أو الجنوب ، ولا من أصله قحطانى أو عدنانى !

فما سرُّ هذه اللغة الموحدة ؟! ومن أتت عناصرها ومفرداتها ؟ وكيف اتفقت هذه القبائل المتفرقة عليها ؟

يبدو في بداية الأمر أن الأمر صعب وعسير، وأن القضية عويصة شائكة ، ولا شك في ذلك فهى تحتاج إلى مواجهة علمية موضوعية ..

في البداية نقول : أن الأدب الجاهلى قد تشكلت له لغة خاصة يستعملها الأدباء في إبداعهم ، بصرف النظر عما قد يكون لهذا الأديب أو ذاك من لهجة محلية ، يتحدث بها هو وقبيلته فى تفاهمهم اليومى العادى ..

وليس أدل على سيادة تلك اللغة الأدبية الواحدة- قبل الإسلام- من نزول القرآن الكريم بها ، ولقد خاطب القرآن الكريم العرب - كل العرب - ففهموه ، وجادلوا الرسول (ﷺ) فيه ، بل حاول بعضهم تقليده مما يدل على شيوع لغته فيهم ، قبل نزوله بزمن - ولو لم يكن العرب - بسليقتهم اللغوية البليغة - أهلاً للتحدى ، لما كان هناك مسوّغ لأن يتحداهم الله أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، إذ تحدى العاجز عبث ، وحاشا لله أن يعبث.

ومهما تعددت اللهجات في لغة من اللغات ، ومهما ضعفت الصلة بين ألسنة أصحابها ، فإن ذلك لا يُلغى الأصل اللغوى الواحد بينهم وليس ثمة ما يمنع - آنئذٍ- من أن يصطنع أصحاب تلك اللهجات لغة راقية ، تكون لغة الأدب والعهود والاتصالات الرسمية مع عدم اختفاء هذه اللهجات المحلية ، وإنما تظل لغة للحديث الشعبى في الأسواق ، والمجالس الخاصة ، وقضاء تلك الحاجات اليومية العاجلة .

وإذا كان الأمر كذلك ..فما هذه اللغة الرسمية التى ارتقت لتكون لغة الأدباء العرب قبل الإسلام ؟

هناك آراء متعددة ، ووجهات نظر كثيرة ، لكن أعلاها وأكثرها تأييدًا ، هو أن لغة الأدب الفصحى هى لهجة قريش ؛ لأنها كانت - آنذاك- أفصح اللهجات العربية ، وأصفاها ؛ وبها أُنزل القرآن الكريم ، ثم كان أن تجمّع لها من الأسباب - فوق ذلك - ما جعلها تسير بخطوات حثيثة نحو الرقى والكمال ، ولما تمَّ لها ذلك ، اتخذها العرب- كل

العرب - لغة رسمية لهم ، يقولون بها أدبهم ، ويكتبون بها رسائلهم ، ويتحدثون بها في مؤتمراتهم الرسمية ، وتجمعاتهم الكبيرة .

ولقد أفاض المؤرخون- القدامى والمحدثون - في فضائل تلك اللهجة القرشية ، وأضفوا عليها من المزايا ما يجعلها بحق لغة العرب الأولى .

يقول ابن فارس (١):-

" .. أجمع علماؤنا أن قريشًا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله - جل ثناؤه - أختار منهم نبى الرحمة .. محمدًا (ﷺ) ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم لغاتهم ، وأصفى كلامهم ... فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طُبعوا عليها ... فسارت بذلك أفصح العرب " .

ثم جاء الدارسون فأضافوا أسبابًا أخرى لسيادة لهجة قريش وغلبتها على غيرها ، من هذه الأسباب ما هو دينى ، وما هو اقتصادى ، وما هو ثقافى .

فمكة - موطن قريش - كانت مهوى أفئدة العرب ، يحجون إليها في كل عام ، ويقيمون بها آلهتهم ، والقرشيون - في كل ذلك - موضع التقدير والاحترام ؛ لأنهم سدنة بيت الله وحماته .

كما كانت مكة مركزًا تجاريًا مهمًا ، تمر بها القوافل غدوةً ورواحًا وحُبّبت التجارة إلى القرشيين ، فكانت لهم رحلات خارج مكة ، وبذلك انتعش مركزهم المالى ، وازدادوا ثراءً حتى لقد منّ الله عليهم بقوله :-

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ (٢) .

[من سورة قريش ١:٤] .

صدق الله العظيم

---

١ - الصاحبى فى فقه اللغة ، صـ٢٣ ، طبعة المؤيد .
٢- سورة قريش .

وحظيت قريش - ثقافيًا - بمكانة عظيمة ، إذ كانت تقام حول مكة ثلاثة أسواق على مدار العام وهى : سوق عكاز وكان ثلاثين يومًا ، وسوق مجنَّة وكانت سبعة أيام ، وذو المجاز وكانت ثلاثة أيام .

وكانت قبائل العرب تحضر هذه الأسواق ، للتشاور والتجارة ، يخطب الخطباء ، وينشد الشعراء ، وتُعقد مجالس النقد للحكم بين المتسابقين في ميادين الفصاحة وفنون القول .

فلا غرابة إذن بعد هذا البيان إذا اتفقت اللغة واللهجة في الشعر الجاهلى لأن قريشًا كانت سائدة في الجاهلية على العرب بتجارتها ، وحضارتها ، ولغتها ، ولهجتها [1] وأيا ما كان الأمر .. فإننا لانرى ضرورة لربط لغة الشعر الجاهلى بأى لهجة أو قبيلة في شبه الجزيرة العربية .

فنحن العرب في زماننا الحالى نعايش اللهجات المتعددة تختلف في كل قطر ، وإقليم ، ومدينة ، وقرية ، ونجع ، والناس يتحادثون فيما بينهم بلهجتهم المحلية ، فإذا ما أراد شاعر ما إنشاد قصيدة أو تشمر خطيب كى يلقى خطبة ، أو انبرى محرر ليكتب مقالة ، اصطنعوا لغة فصيحة راقية مفهومة للجميع ، وفي نفس الوقت تختلف كثيرًا عن لهجاتهم المحلية ، ولم يقل أحد أن تلك اللغة الأدبية الموحدة مصرية أو شامية ، خليجية أو مغربية ومعنى هذا .. أن هناك نمطيًا تعبيريًا ما ، كان يخص المثقفين ، وأدباء العرب ، أيًا كانت البيئة التى ينتمون إليها وفي نفس الوقت كانت لهم لهجة أخرى في حديثهم العادى .

ومن هنا فإنى أرى أن لغة الأدب الجاهلى ، كانت لغة فصيحة ، ألفاظها منتقاه وعباراتها مختارة ترتفع بدرجتها العالية عن مستوى اللهجات العامية الشائعة ، التى تستخدمها القبائل في قضاء حاجاتها العامة ، ومطالب الحياة العاجلة .

١- راجع : الشهاب الراصد ، محمد لطفى جمعه / ١٥٢ ، القاهرة ١٩٢٦ م .

وهذه اللغة لم تصنع ، ولم يتفق عليها بمعاهدة ولم تُعقد الجلسات لوضع ألفاظها ، أو دلالة معانيها ، وإنما يخلقها أصحابها ، الأدباء الذين يستعملونها ، يختارون - بأذواقهم - اللفظ المناسب للمعنى المقصود ، ويضعونه في المكان اللائق به ، ليكوّن بناء محكمًا ، ويخرج تنسيقًا دقيقًا جميلاً .

وأفراد الأمة العربية - جميعًا - يفهمون هذه اللغة الأدبية ، وإن اختلفت عن لهجاتهم المحلية والواقع يؤيد ذلك .

****

٤ - جمع الشعر الجاهلى :-

عاش الشعر الجاهلى في الصحراء يُنشد على ألسنة الرواة ، ويُستشهد به في مختلف المناسبات ، وتُقام به المجالس والندوات والأسواق ، فكان عماد الأذواق وعدة المحاربين وأنيس المحبين واتخذه الشعراء مادة سمرهم ، وحبهم وبغضهم ، ووفادتهم على الأمراء والخلفاء ، إلى أن جاءت الفتوحات ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، وانتشر الإسلام في أرجاء الدنيا ، واحتاج العرب في هذه البلدان الى قاموسهم الأكبر- وهو الشعر- فلم يجدوه مدوّنًا .

وكيف يدوّن والقرآن الكريم ما زال في الصدور ؟ والسنة الشريفة على الألسنة تحتاج إلى كتابة وتدوين ؟

ومما لاشك فيه أن العرب قد استودعوا شعرهم جميع ما يهمهم ؛ لاعتقادهم الجازم أنه عنوانهم ودليل نبوغهم ، ومصدر فخرهم على الدوام .

فقد احتفى بنو تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ، وكان يرويها صغيرهم وكبيرهم حتى هُجوا بذلك ، فقال بعض شعراء بكر ابن وائل :-

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمةٍ ∴ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم[1]

وفيها افتخر بقومه ورجاله ، وتصدى للأعداء ، وأظهر لهم ما عنده من قوة وعتاد .

١- انظر : الأغانى ، لأبى فرج الأصفهانى ، جـ ١١ / ٥٤ .

وقد تعلق الأبناء بشعر آبائهم لما فيه من مآثر وفخر، فظلوا يعتزون به في كل مناسبة وينشدونه في كل وقت وحين.

فقد دخل ابن أبى محجن الثقفى على معاوية، فقال له معاوية [1] أبوك الذي يقول :-

إذا مت فادفنى الى جنب كرمةٍ ∴ تروّى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنى بالفلاة فإننى ∴ أخاف إذا مت أن لا أذوقها

فقال ابن أبى محجن، لو شئتَ ذكرتُ أحسن من هذا من شعره، قال وما ذاك ؟ قال قوله :-

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته ∴ وسائلى القوم ما حزمى وما خُلقى
القوم يعلم أنى من سراتهم ∴ إذا تطيش يد الرعديدة الفرق
أعط السنان غداة الروع حصته ∴ وعامل الرمح أرويه من العلق

وظل الشعر الجاهلى قبلة الخلفاء والأمراء والقواد وغيرهم، يأخذون منه ما يعنُّ لهم، لما فيه من قيم، ولما انبث فيه من خصال حميدة، ومُثل عظيمة.

ونرى الرسول الكريم (ﷺ) يستشهد بكثير منه، وكذا أصحابه من بعده فقد أُنشد للرسول (ﷺ) قول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله ∴ حتى أنال به كريم المأكل

فقال (ﷺ) : ما وُصف لى أعرابى قط، فأحببتُ أن أراه إلاّ عنترة.

ومع كل هذا التعليق والاحتفاء، لم يحظ الشعر بالتدوين في عصر صدر الإسلام ولا في العصر الأموى وكان لذلك أسباب منها :-

(١) انشغال المسلمين بالجهاد في سبيل الله وقتال المشركين.

(٢) حرصهم على حفظ القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

(٣) عسر الكتابة في هذا العصر، وثقل أدواتها.

(٤) اهتمام العرب بالرواية لا بالكتابة اعتمادًا على سلامة ذوقهم ورهافة حسهم.

١- راجع ذلك فى عيون الأخبار، لابن قتيبة / ٣٨.

وليس معنى هذا أن كتابة الشعر لم تكن شيئًا مذكورًا ، بل كانت قليلة ، وفي اتجاه محدود .

وقد يتساءل المرء عما إذا كان الرواة قد استعملوا الكتابة في نشر أو تدوين قصائد الشعر أولاً ؟ ومن الأوفق ألاّ نؤكد شيئًا من هذا القبيل ، وقد رويت بعض الوقائع للتدليل على هذا الاستعمال ، ولكنها ليست نهائية .

إن أكثر الرواة قد اعتمدوا على الرواية الشفهية لحفظ الشعر ، أكثر من اعتمادهم على كتابته وتدوينه ، وانتقل الشعر من راوٍ إلى آخر حتى استقر في صورته النهائية التى سنعرض لها إن شاء الله .

والخلاصة : أن الرواية الشفهية وحدها كانت تؤلف الطريقة الأساسية للنشر منذ اللحظة التى قذف فيها الشاعر وراويته الأشعار في أسماع الجماهير .

ومما يدلنا على ذلك : أن بعض النسّابين العرب الذين كانوا يعرفون كثيرًا من المقطوعات أو القصائد أو الأبيات التى تحتوى على أصول القبائل وتاريخها ، أو مصاهرتها أو هجراتها ، لم نجد لهم كتبًا مدونةً أو مصنفات ، بل كان اعتمادهم على المشافهة والحفظ أكثر من اعتمادهم على الكتابة .

وقد مر الشعر العربى بمراحل عديدة حتى استقر على صورته النهائية في الكتب والمؤلفات .

وقد برز الأصمعى في مجال جمع الشعر ، وانتهى عمله بحصاد وفير مما غذى الأدب العربى اللاحق وأوحى للعرب جميعا باحترام هذا التراث مدى الدهور .

ولقد قام علماء الكوفة والبصرة بدور بارز وفعال في جمع الشعر العربى ، وتسابقوا في هذا الاتجاه ، ويعود الفضل في الجمع المنهجى للنصوص الشعرية ، والأخبار التاريخية المتعلقة بها إلى العلماء والنحاة واللغويين الذين أعقبوا كبار الرواة .

وقد أدى هذا الجمع إلى تدوين نهائى للآثار الشعرية التى ظهرت قبل الإسلام ، أوفي أوائله ، ففي النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) جرى التدوين ، وتركز النشاط كما هو منتظر في البصرة والكوفة وبغداد .

وقد تعب علماء الشعر في صقله وتهذيبه وتنقيته من الدخيل والغريب ، فكانوا يتأكدون مما تضيفه القبائل إلى شعرائها ، فلم يكتفوا بسماعه من مصادره بل كانوا يؤكدون أخذه من عالمٍ ثقة أو راوية خبير ، وكانوا لا يقبلون رواية الشعر من صحيفة أو مصنف مكتوب بل لابد فيها من الإسناد على نحو ما فعل علماء الحديث .

ولهذا لا نكاد نصل إلى أبى الفرج الأصفهانى في كتابه الأغانى ، حتى نجد مع كل خبر وكل شعر سنده من الرواة الذين حملوه جيلاً بعد جيل ، وهو يستهلّ السند دائمًا بكلمة (حدثنا) أو (أخبرنا) ثم يذكر أسماء من حملوا الشعر أو الخبر ، وهذا كله يظهر مدى الجهد الذى بذله هؤلاء العلماء ، ويواكبهم عرق الرواة ومشقتهم في هذا الاتجاه .

فالانتقال إلى البادية ومعايشة الأعراب ، والسهر على الأخذ منهم وغربلته ورفض ما يكون فيه من زيف ، ثم حفظه ، واتصال نسبه إلى القبائل أو أبناء الشعراء ، كل هذا يعد جهدًا كبيرًا قام به العلماء في هذا الوقت من الزمان .

وقد بدأت حركة الجمع بتحديد مصادر هذا التراث وشد الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق المعزلة نسبيًا عن المخالطة اللغوية ليأخذوا اللغة من أفواه الأعراب الذين لم تفش فيهم العجمة ، لينقلوا عن أبناء القبائل ما وعت ذاكرتهم من شعر الشعراء ثم قاموا بفحص هذه النصوص والمرويات فحصًا دقيقًا لتوثيق مصادرها ومتونها ، على أيدى خبراء ذوى بصر بالشعر ، يعرفون صحيحه من زائفه ويميزون هذا من ذاك .

٥-مصادر الشعر الجاهلى :-

نتج عن الجهود الكبيرة التى بذلها العلماء والرواة في جمع الشعر أن أصبح لدينا مجموعة من المصادر التى يُستقى منها الشعر الجاهلى ، وقد تنوعت هذه المصادر بين مختارات شعرية أو منتخبات ، أو دواوين القبائل أو الأفراد ، أو بعض المجموعات الشعرية لبعض طبقات العرب .

ومن خلال ما قرأنا في هذا الشأن يمكننا أن نقسم مصادر الشعر الجاهلي إلى مجموعتين :-

المجموعة الأولى (المصادر الخاصة):-

ونقصد بها تلك الكتب المتخصصة ، التي أفردها مؤلفوها لرواية الشعر وجمعه وتوثيقه ، وقد وردت إلينا في صور ثلاث :-

(١) الدواوين المفردة (٢) دواوين القبائل (٣) المختارات الشعرية .

١. الدواوين المفردة :-

الديوان المفرد : كتاب خاص ، اقتصر فيه جامعه على شعر شاعر واحد فقط- ومن حسن الحظ أن كثيرًا من هذه الدواوين قد حفظته يد العناية الإلهية إلى عصرنا الحاضر ، فهو متاح لكل راغب الإطلاع على بعض أشعار الجاهليين في مظانّها الأصلية ، تمامًا بالصورة التي رواها علماؤنا إبّان النهضة العلمية في القرون الإسلامية الأولى ، وبعد أن رجع أكثرها ، وأخرج للناس في طبعات عصرية محققة ودقيقة ، ومن هذه الدواوين:-

ديوان أعشى قيس	ديوان الأفوه الأودى
ديوان امرئ القيس	ديوان أمية بن الصلت
ديوان أوس بن حَجر	ديوان بشر بن أبى خازم
ديوان حاتم الطائى	ديوان الحارث بن حلزة
ديوان الحطيئة	ديوان حميد بن ثور
ديوان الخنساء	ديوان دُريد بن الصِّمة
ديوان ابن الدمينة	ديوان زهير بن أبى سُلْمى
ديوان السموءل بن عادياء	ديوان الشنفرى بن الأزدىّ
ديوان طرفة بن العبد	ديوان طفيل الغَنَوىّ
ديوان عدى بن زيد	ديوان العبّادىّ
ديوان عروة بن الورد	ديوان علقمة بن عَبَدَةَ
ديوان عمرو بن قُمينة	ديوان عمرو بن كلثوم
ديوان عنترة بن شداد	ديوان قيس بن الحُطيم

ديـــوان كعـــب بـــن زهيـــر	ديـــوان لبيـــد بـــن ربيعـــة
ديـــــــوان المُـــــــتلمّس	ديـــوان المثقّـــب العبـــدى
ديـــوان المهلهـــل بـــن ربيعـــة	ديـــوان النابغـــة الـــذبيانى

وعلى الرغم من هذا الإنتاج الهائل ، فـ " ... ما يزال شعر كثير من شعراء العصر الجاهلى مبعثرًا في شتى كتب الأدب والتاريخ ، مثل : عبد يغوث ، وأبى قيس بن الأسلت والحصين ابن الحِمام ، وقيس بن عاصم ، وهؤلاء الشعراء - وأمثالهم - ينتظرون من يجمع شتات شعرهم ، ويجمع تراث كل منهم في ديوان خاص به " [1].

وقد أشار بعض الباحثين والنقاد إلى أن هناك دواوين كثيرة أخرى لشعراء جاهليين ، أشارت إليها الفهارس ، ولكنها غائبة مفقودة أو ضائعة مجهولة المكان ، تحتاج الى بحث وتنقيب واستخراج وتحقيق ودراسة [2] .

ومما يؤكد الثقة في أدبنا الجاهلى .. أن أكثر هذه الدواوين ، التى وصلت إلينا ، جاءت من طرق مختلفة ، وبروايات متعددة ، تتقارب - في الشكل - أو تتباعد لكن الجوهر واحد .

ويكفى في هذا المقام أن نعلم أن ديوان امرئ القيس بن حُجْر قد شقَّ ست عشرة طريقًاحتى وصل إلينا ، بمعنى أن ستة عشر عالماً رووا هذا الديوان ، وكان كل عالم يعضّد سلفه ، وكل رواية تؤكد أختها ، مما يزيد من يقيننا في العصر الجاهلى .

٢. دواوين القبائل :-

ديوان القبيلة ، كتاب يحوى - بين دفتيه - نسب القبيلة ، وأخبارها ، وأيامها ، ووقائعها ، وشعر شعرائها ، ونثر ناثريها ، فكتب القبائل إذن أشبه ما تكون بالمجموعات الشعرية ، تنتظم قصائد كاملة ، ومقطعات قصيرة ، وأبياتًا متفرقة لشعراء قبيلةٍ ما أو لبعض شعرائها، وربما ضمت جميع شعر شاعر منهم ..

١- في تاريخ الأدب الجاهلى ، د/ على الجندى صـ١٧٢ طبعة القاهرة ١٩٨٧ م ، بتصرف .
٢- راجع الجاهليون وآدابهم ، د / جودة أمين / ١٠٥ ، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

ودواوين القبائل كانت تجمع إلى جانب ذلك أخبارًا وأحاديث تتصل بالشعراء، وبالمناسبات المختلفة التى قيلت فيها القصائد، مما جعل من هذه الدواوين مفخرة لها، ومعرضًا لنتاج أدبائها.

ويبدو أنه كان لكل قبيلة عربية ديوان مستقل حيث يذكر الآمدى ستين ديوانًا لستين قبيلة، ويؤكد أنه رأى هذه الدواوين كلها، ورجع إليها وأخذ منها شعرًا كثيرًا للشعراء الذين أوردهم في كتابه [1].

ومع ذلك، فالشعراء المعروفون بالشعر في القبائل، أكثر من أن يحيط بهم عدٌّ، ولا نحسب أن علماءنا قد استغرقوا كل شعر القبائل حتى لم يفتهم شاعر واحد إلا عرفوه، لأن ذلك يحتاج إلى عمل شاق، وإمكانيات جبارة.

ومما يؤسف له حقًا، أن شعر القبائل ودواوينهم قد ضاعت، ولم يبق منها سوى ديوان هذيل، برواية أبى سعيد الحسن ابن الحسين السُّكرى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، وما بين أيدينا من شعرهم يعد ثروة أدبية وفنية ممتازة تحتاج إلى دراسة متأنية لاستخراج نفائسه والكشف عن غرره.

٢. المختارات الشعرية :-

عندما انتهى علماء اللغة والرواة من جمع الدواوين المفردة، ودواوين القبائل العربية، وأحسوا ببعض من الفراغ، أخذوا ينظرون إلى هذا التراث نظرة أخرى، إنها النظرة النقدية الفاحصة، فأخذوا يختارون بعضًا من القصائد، ويضعونها فى مجموعات باعتبار أنها من أنفس الشعر من وجهة نظرهم.

وقد ترتب على هذا الصنع أن أصبحت أمامنا مجموعات شعرية كبيرة، نعرض لها الآن في إيجاز :-

١. المعلقات :-

المعلقات : اسم مشهور لعديد من القصائد الطوال، تلك التى تُعد أقدم ما بقى لنا من القصائد الكاملة وقد جمعها " حمّاد الراوية "المتوفى سنة ١٥٦ هـ وسمّاها السُّموط،

١- المؤتلف والمختلف، الآمدى، صـ٢٣، مطبعة القدس ١٣٥٤٠هـ.

جمع سِمْط ، وهو العِقْد ، وأراد حمّاد - بهذا الاسم - أن يُشعرنا نفاسة ما انتقاه ، وأن يباهى بحسن ذوقه فيما اصطفاه .

وقد اختلف الرواة والنقاد في عدد تلك القصائد المعلقات ، وفي أصحابها ، وأرجح الأقوال وأشهرها أنها سبع ، وهى :-

١. معلقة امرئ القيس ، وهى ثمانية وسبعون بيتًا ، ومطلعها :-

قفا ٠٠ نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقْط اللّوى بين الدَّخول ، فحومل

٢. معلقة طرفة بن العبد ، وهى مائة وخمسة أبيات ومطلعها :-

لخولة أطلالٌ ببرقة ثَهْمَد تلوح كباقى الوشم في ظاهر اليد

٣. معلقة زهير بن أبى سُلمى ، وهى تسعة وخمسون بيتًا ، ومطلعها:-

أمن أم أوفى دمنةٌ لم تَكَلَّم بحومانةِ الدَّرَّاج ، فالمُتثلَّم

٤. معلقة لبيد بن ربيعة العامرى ، وهى ثمانية وثمانون بيتًا ، ومطلعها :-

عفت الديار - مَحَلُّها ، فمُقامُها بمنىً ، تأبّدَ غَوْلُها ، فرِجامُها

٥. معلقة عمرو بن كلثوم ، أربعة وتسعون بيتًا ، ومطلعها :-

ألاَ هُبِّى بصحنك ، فأصبحينا ولا تُبقى خمور الأندرينا

٦. معلقة عنترة بن شداد العبسى ، اثنان وثمانون بيتًا ومطلعها :-

هل غادر الشعراء من متردَّمٍ ؟ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّم ؟

٧. معلقة الحارث بن حِلِّزة ، أربعة وثمانون بيتًا ، ومطلعها :-

آذنتنا ببَيْنِهَا أسماءُ رُبّ ثاوٍ يُملُّ منه الثَّواءُ

والمفضل الضبى يضع النابغة الذبيانى ، والأعشى ، مكان عنترة ، والحارث ابن حِلِّزة ، ويقول :-

"ومن زعم أن السبع التى تسمَّى السموط ٠٠ لأحد غير هؤلاء فقد أبطل"(١) .

١- تاريخ الأدب العربى ، بروكلمان / ٦٧ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٤ م .

" ويوافقه على ذلك أبو زيد القرشى ، إذ يقول : "٠٠ فمن قال إن السبع لغيرهم ، فقد خالف أهل العلم والمعرفة ٠٠"[١] .

وبعض الروايات يجمع بين الرأيين ، فيجعل المعلقات تسعًا ، وذلك بأن يضيف - إلى اختيار حماد الراوية - القصيدتين اللتين اختارهما المفضل الضبى ، وهما :-

معلقة النابغة الذبيانى ، وهى تسعة وأربعون بيتًا ، ومطلعها:-

يـــا دار ميَّـــة بالعليـــاء ، فالسَّـــند أقـوتْ وطـال عليهـا سـالفُ الأمـد

ومعلقة الأعشى ، وهى أربعة وستون بيتًا ، ومطلعها :-

ودّع هريـــرة إن الركـــب مرتحـــلُ وهـل تطيـق وداعًـا أيهـا الرجـلُ ؟!

أما التبريزى ٠٠ فقد جعل المعلقات عشرًا ، وضم الى تسع القصائد السابقة ، واحدة ، وهى معلقة عبيد بن الأبرص ، وهى ثمانية وأربعون بيتًا ، ومطلعها :-

أقفـــرَ مـــن أهلـــه مَلْحُـــوبُ فالقطَّبيَّـــــات ، فالـــــذَّنوبُ

هذا ٠٠٠ وللمعلقات أسماء متعددة منها :-

السُّمُوط ، والسبع الطوال ، والمشهورات ، والمذهَّبات ، بيد أن الاسم الذائع المعروف بين الدارسين هو المعلقات .

وقد اختلف النقاد في سبب تسميتها المعلقات :-

فقيل لأن العرب تخيّرتها من بين أشعارها ، لما رأوا من عظيم قدرها ، ثم كتبوها بالذهب على الحرير ، وعلقوها على أركان الكعبة .

أو سميت بذلك لعلوقها بأذهان العرب ، وحفظهم لها ، أو سميت بذلك لأن الشعراء كانوا يجتمعون - كل عام - في سوق عكاظ ، ويتناشدون الأشعار ، فكان ملك مكة إذا استجاد قصيدة قال : علِّقوا هذه ، وأثبتوها في خزائنى - أو أن كلمة " معلقات " من العِلْق ، بمعنى النفيس الذى يتعلق به القلب ، وتهواه النفس .

١- جمهرة أشعار العرب صـ٤٥ ، طبعة بولاق القاهرة .

وتفسير آخر :يرى أن عرب الجاهلية كانوا إذا كتبوا شيئًا في جلد أو حرير، فخافوا عليه قرض فأرة أو نحوها من حشرات الأرض ، طووه على عود من خشب وعلقوه على جدار البيت ، أو على عمود الخيمة .

وأيا ما كان الأمر ٠٠ فإن الخلاف في الاسم ، أو في معناه لا يعنى شيئًا ، والذى يهمنا هنا ٠٠أن أكثر العلماء والرواة يتفقون على أصالة هذه القصائد ، وعلى الثقة فيها ، ويقدرون قيمتها الفنية والتاريخية،ومن ثم كانت موضع الاهتمام والرعاية في كل العصور .

٢. المفضليات :-

المفضليات : مجموعة أصيلة من القصائد الموثوق بها ، مختارة من عيون الشعر العربى بعناية فائقة ، وقد سميت باسم جامعها : المفضَّل الضبِّى ، المتوفى سنة ١٦٤ هـ .

والمشهور ٠٠ أن المفضل جمعها لتلميذه : المهدى بن المنصور حين كان وليًا لعهد أبيه ، وسمَّاها - في أول الأمر - كتاب الاختيارات ، غير أن الناس أطلقوا اسمه عليها فيما بعد .

وعلى الرغم من الاختلاف حول عدد القصائد التى اختارها المفضل فإن النسخة المحققة التى بين أيدينا الآن ، تضم مائة وثلاثين قصيدة ، لسبعة وستين شاعرًا منهم سبعة وأربعون شاعرًا جاهليًا ، عاشوا وماتوا ولم يدركهم الإسلام .

وعلى كل حال ٠٠ فقد ذاعت شهرة المفضليات في كل الأوساط الأدبية والعلمية ، ونالت ما تستحق من دراسة واهتمام .

٣. الأصمعيات :-

الأصمعيات - أيضًا - مجموعة مختارة من القصائد ، والمقطَّعات القصيرة سُمِّيت باسم جامعها أيضًا ، وهو أبو سعيد عبد الملك ابن قُريب الأصمعى ، المتوفى سنة ٢١٥ هـ .

وتتضمن اثنين وتسعين قصيدة ومقطَّعة ، لواحد وسبعين شاعرًا ، سبعة مجهولون وأربعة وأربعون جاهليّون .

وتتداخل الأصمعيات - مع - المفضليات في تسع عشرة قصيدة ، وأغلب الظن : أن جملة من اختيارات الأصمعى قد دخلت - عمدًا أو سهوًا - إلى المفضليات ، والحق أن

الأصمعيات ، لم تلق في الأوساط الأدبية ما لقيته المفضليات من الانتشار والذيوع ، ربما ٠٠ لأن الأصمعى كان قد عمد إلى اختصار الرواية ، فأضعف بذلك ثقة الناس ، وجمهور الأدب فيها .

****

٤. جمهرة أشعار العرب:-

جمهرة أشعار العرب نوع آخر مميز من المختارات ، يختلف عن سابقيه : المفضليات ، والأصمعيات في أنه بُنى على أساس معلوم في الاختيار ، ونسق واضح في التقسيم والتبويب .

و جمهرة أشعار العرب تنسب إلى أبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، الذى عاش في أواخر القرن الرابع الهجرى .

وقد التقت الجمهرة مع المفضليات في أنها قصائد طوال كاملة ، بيد أن أبا زيد قسّم مختارات جمهرته إلى سبعة أقسام ، يمثل كل قسم طبقة معينة ، وفي داخل كل قسم سبع قصائد لسبعة شعراء أى أن جمهرة أشعار العرب تحوى تسعًا وأربعين قصيدة ، لتسعة وأربعين شاعرًا ، موزعة على النحو التالي :-

- السُّموط أو المعلقات .
- المجمهرات .
- المنتقيات .
- المذهّبات .
- المراثى .
- المَشوبات .
- الملحمات .

وأيا ما كان الخلاف ٠٠ حول جامع الكتاب ، أو حول مفهوم تلك الأسماء فإن جمهرة أشعار العرب ، تضم طائفة طيبة من القصائد الجيدة ، لشعراء مجهولين في الجاهلية والإسلام ، ويظهر من اختيارها ذوق صاحبها ، ومن تصنيفها ٠٠ مراعاته لكثير من القيم الفنية .

٥. مختارات ابن الشجرى:-

جامع هذه المختارات: هبة الله بن احمد بن الشجرى، المتوفى سنة٥٤٢ هـ .

وقد جعل كتابه أقساما ثلاثة :-

- القسم الأول : قصائد للشنفرى الأزدى ، وطرفة بن العبد ، والمتلمِّس ، ولقيط بن يعمر الإيادى .
- القسم الثاني : ويضم مختارات من شعر زهير بن أبى سُلمى ، وعبيد بن الأبرص وبشر بن أبى خازم .
- أما القسم الأخير : فيضم اختيارات من ديوان الحطيئة .

****

٦. ديوان الحماسة :-

عبارة عن طائفة من كتب الاختيار ٠٠ كل منها يسمى : ديوان الحماسة ، ويُفرِّق بينها بذكر اسم جامعها ، ولعلها قد تبعت - في التسمية - ما أطلقه أبو تمام على أول ديوان ظهر منها ، ومن أشهر هذه الدواوين :-

ديوان الحماسة لأبى تمام ، وهو مقطعات قصيرة منتخبة ، جمعها الشاعر العباسى الكبير : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، والمتوفى ٢٣١ هـ .

وقد قسَّمها إلى عشرة أبواب ، متفاوتة الطول ، وهى :-

باب الحماسة ٠٠ أطول الأبواب ، ويكاد يستغرق وحده نصف الكتاب ، ولعل هذا هو السبب الذى حدا بأبى تمام إلى أن يطلق اسم الحماسة ٠٠ على المجموع كله .

أما تسع الأبواب الأخرى فهى : باب المراثى ، باب الأدب ، باب النسيب باب الهجاء ، باب الأضياف والمديح ، باب الصفات ، باب السَّير والنعاس ، باب المُلَح ، باب مذمة النساء .

ديوان الحماسة للبحترى :-

وهو طائفة من الاختيارات ، تشبه سابقتها إلى حد بعيد ، جمعها الشاعر العباسى المعروف : أبو عُبادة الوليد بن يحى البحترى ، المتوفى سنة ٢٨٤ هـ .

ويقال إنه ألفها إجابة لطلبٍ من الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسى المتوكل وقد قسمها البحترى إلى مائة وستين بابًا ، وهى مقطّعات قصيرة وكثيرة ، ويدور

معظمها حول نزعات خلقيّة ، بيد أنها لم تلق من الذيوع والانتشار ما نالته حماسة أبى تمام [1] .

حماسة الخالِديَّيْن :-

مجموعة شعرية جمعها الأخوان : أبو عثمان سعيد ، وأبو بكر محمد .. ابنا هاشم الخالديّ ، وهما شاعران مجيدان ، من شعراء سيف الدولة الحمدانى ، في القرن الرابع الهجرى .

- حماسة ابن الشجرى : وهى مجموعة شعرية لهبة الله ابن الشجرى ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ .
- الحماسة المغربيّة : وهى مجموعة شعرية جمعها يوسف البيَّاسىُّ ، في تونس سنة ٦٤٦ هـ .

الحماسة البصْرية:-

وقد جمعها صدر الدين على بن الفرج البصرى ، وقدّمها إلى الملك الناصر ، صاحب حلب ، سنة٦٤٧ هـ .

هذا ، ولم يُعْن جامعوا الحماسات- عمومًا - بالرِّواية والسَّند ، ولم يهتموا بالتعريف بمصادرهم ، أو توثيق ما يقع عليه اختيارهم ومن ثمَّ فإن قيمة هذه الدواوين أدبية أكثر منها تاريخية .

(ب)المجموعة الأخرى- المصادر العامة:-

ونقصد بها .. تلك الكتب العربية التى اهتم مؤلفوها بالشعر والشعراء ، حين يوردون بعض الأشعار - أو الأخبار- في سياق تآليفهم شاهدًا أو برهانًا ، وهم لا يقصدون تلك النصوص أو الأخبار لذاتها .

وهذه الكتب بدورها تتوزع على نمطين :-

-النمط الأول : كتب الأدب:-

وهى كتب كثيرة غير متخصصة في رواية الشعر وليست مصدرًا أوليًا من مصادره وإنما تورد الأنساب والأخبار ، أو قد تهتم بالطبقات ، وبالنقد وبالترجمات وما إلى ذلك .

١- فى تاريخ الأدب الجاهلى ، د. على الجندى / ١٦٦ ، القاهرة ١٩٧٨ م .

ومن هذه الكتب:-

- طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحى .
- طبقات الشعراء لابن المعتز.
- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة .
- عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، والأغانى لأبى فرج الأصفهانى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والذخيرة فى محاسن أهل الجيزة لابن بسّام .. إلى غير ذلك من هذه الكتب ...
- النمط الآخر : كتب التاريخ والسير والتراجم :-

لا يعدو الشعر في هذه المصادر .. أن يكون وسيلة للاستشهاد والاحتجاج ، حتى لقد أهملت نسبة الكثير منه إلى قائله ، أو قد يُنص على نسبة البيت إلى شاعر غير معروف.

ومن هنا فإن القيمة التوثيقية لمثل هذه المصادر غير ذات أثر ، ولا يعتد بها علميًا ومن هذه الكتب :-

- وفيات الأعيان ..لابن خلّكان ، وكتاب سيبويه في النحو ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وفتوح البلدان للبلاذرى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، والصاحبى لابن فارس ، ولسان العرب لابن منظور.

والخلاصة : أن الشعر في هذه الضروب المختلفة من الكتب ، ليس غاية تقصد ، أو هدفًا يبتغى ، وإنما هو وسيلة تُلتمس لغيرها من الغايات ، وليس يعنيهم - بعد ذلك- تحقيق نسبة الشعر لشاعر بعينه ، بل لا يعنيهم التثبت من صحة الشعر نفسه ، فربما احتجوا بشعر يدركون - هم أنفُسهم - أنه زائف موضوع ولكن ذلك لا يمنعهم من إيراده ، لما فيه من نادرة غريبة ، أو حديث مستطرف .

ومن هنا .. فإننا نقول إن كل هذه الكتب ، وأمثالها ليست مصادر أصيلة للشعر الجاهلىّ .

****

٢- رسالة الشعر في الحياة:-

يطرأ هذا السؤال على الذهن كثيرًا ، ونحن عندما ندقق النظر فيما حولنا ، نجد أن لكل شيء في هذا الوجود غاية ورسالة ، مهما كان حجمه ، ومهما كانت نسبته ، فلا يتصور أحد أن يكون هناك شيء يشغل حيزًا في هذا الكون دون أن تكون له وظيفة ورسالة حتى ولو كان هذا الشاغل معنويًا ، ولو كان هذا المشغول هو عقل الإنسان أو قلبه أو فكره ومشاعره ، فالمتنبى الحكيم جعل للشيء الذى لم يخلق غايةً حين قال:-

أى عظـــــيم أتقـــــى ∴ وأى محـــــل أرتقـــــى
وكـــل مـــا خلـــق الله ∴ ومـــا لـــم يخلـــق
محتقـــر فـــي همتـــى ∴ كشـــعرةٍ فـــي مَفرقـــى

فها أنت ترى المتنبى قد جعل ما خلقه الله ، وما لم يخلقه محتقرًا في همته على ما في هذا الكلام من غلو وشطط ومجازفة ، المهم أن لكل شيء غاية ، والشعر شيء من الأشياء التى تشغل في هذا الوجود مكانًا أو حيزًا ، وهذا الأمر يتماشى مع سنة الله في خلقه وسنته سبحانه لا تتبدَّل ولا تتحول ؛ إذ لم يخلق الله - سبحانه وتعالى- شيئًا عبثًا فى هذا الوجود ، فالعبثية مستحيلة على الله ، فكل شيء مهما كان حجمه أو كيانه ، له غاية ورسالة ووظيفة ، وهذه الغاية في الأشياء الموجودة تشتبك مع الحسِّ الدينى في الدلالة :-

وفـــي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــةً ∴ تـــدل علـــى أنـــه الواحـــدُ

ولكن ما غاية الشعر ؟ وما رسالته في الحياة ؟

لقد دارت الأقوال ، واشتبكت المذاهب النقدية في معارك كلامية حول هذه القضية ، ونتج عن ذلك : أن قال بعض النقاد : إن الفن - ومنه الشعر- لا غاية له إلاّ الفن أى أن الفن للفن .

ومذهب آخر يقول : إن الفن - ومنه الشعر- للحياة ، أى شعارهم : أن الفن للحياة ، ولكل من المذهبين وجهة هو موليها .. ولكن تبقى الكلمة في النهاية للشعر نفسه ، أو للفن نفسه ، وأنا هنا معنيٌّ بالشعر فقط ، وهو لون من الفنون .

إننا لو تقصينا الشعر العربى مثلاً ، وأبحرنا في معالمه عبر العصور الأدبية الطويلة قراءة ودرسًا سوف نجد أنه لم يخرج عن كونه ممجدًا لقيم وأعراف وخلائق حميدة ، وهذا نراه ماثلاً فيما يسمى بالمدح ، والرثاء ، والفخر ، إذ في المدح يمدح الشاعر قيمة الكرم ، والشجاعة والوفاء ، والجسارة والحزم ، والقوة والرحمة والسماحة ، إلى غير ذلك مما نلمسه في شعر المديح ، ودع عنك تهمة النفاق التى التصقت ببعض الشعراء هنا أو هناك .. فالمهم هنا : هو أن الشعر رصد قيمًا وأعرافًا ماجدة دون اعتبار لكون الممدوح على تلك الصورة التى رسمها الشعر أم لا .

فلشعر المدح رسالة وغاية مهمة ، أما سمعت قول الشاعر الفيلسوف أبى تمام وهو يرصد هذا الملمح ، إذ يقول :

ولولا خِلال سنَّها الشعر ما درى ∴ بناة العلا من أين تُؤتى المكارمُ

وشعر الرثاء والفخر - كذلك - ينضوى تحت غاية المدح ورسالته ، وشعر الهجاء أيضًا .

وعندما ندقق النظر أكثر نجد الشعر يحمى الناس ويحضهم ، ويدعوهم إلى الإقدام وينفرهم من الضعف والتخاذل والخور ، والانهزامية .

روت الآثار : أن معاوية بن أبى سفيان ، قال : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الإقامة إلاّ أبيات عمرو بن الإطنابة :-

أبتْ لى همتى وأبى بلائى ∴ وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ∴ وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ∴ مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ∴ وأحمى بعدُ عن عِرْضٍ صحيح

فالشعر هنا يطارد نوازع الجبن والخوف والعجز، وشعر الحماسة يدخل في هذا الباب فهل ترى للشعر غاية أخرى أقدس وأجل من هذا ؟ خاصة وأنك تعلم ما يمكن أن يفعله الجبن والخور ولواحقه بأمة من الأمم.

وكان الشعر العربى، ولا يزال يداعب حاسة الجمال لدى الإنسان، ولدينا في الشعر قصائد غراء، أقامت تماثيل بيانية للملكات الجمال عند العرب، فمهما كان الشاعر مصيبًا أو مخطئًا في وصف المرأة، فإنه أعطى للقارئ أو السامع صورة ومثالاً للجمال متجسدًا في المرأة آنذاك بمقاييس ونسب تناغمت مع حياتهم ونظرتهم إلى المرأة وجمالها، واقرأ في ذلك أشعار الغزل، سواء أكانت موضوعًا مستقلاً، أو مقدمات لأغراض أخرى على نحو ما هو ملموس في قصائد الشعراء، ولا يقولن أحدٌ بأن هذه الغزليات مادية حسية في مجملها لم تعد صالحة لذلك الزمان، إذ يكفى القول بأن بيوت الزينة وبيوت الأزياء النسائية تزداد رواجًا يومًا بعد يوم، وفي هذا دلالة على أن الجمال الحسّى لم ينقض أجله وأن الشاعر العربى لم يكن بدعًا ولا خارجاً على قواعد الجمال هنالك، كما أن نظرة الرجل إلى جمال المرأة ما زالت طاغية وفاشية.

ومهما يكن من شيء، فإن رسالة الشعر باقية ما بقيت رسالة الكلمة، وما بقيت حاجة الإنسان إلى الجمال.

إن رسالة الشعر في مجملها تقوم على التربية الذوقية، أو التربية الجمالية لدى الشعوب، وما أعتقد أنها يمكن أن تنتهى يومًا ما، وإنْ عراها الذبول حينًا من الدهر.

أن الشاعر يدرك رسالة الشعر إدراكًا كاملاً، اسمعه يقول :-

ليت الحياة جميعها شعر إذن ∴ لم يشكُ هذا الكون طول عذابه
إنْ رمت بالشعب الحياة فغذّه ∴ بالفن قبل طعامهِ وشرابه

فالشعر- حتى لو ذهبنا مذهب القائلين بأن الفن للفن- تبقى له هذه الغاية، فقيمته الجمالية تعمل على تنمية الحسّ الجمالى لدى الإنسان، وتنمية الذوق وإرهافه، وترطيب المشاعر، وتندية الأحاسيس التى يمكن أن يصيبها شيء من الجفاء والقسوة أو البلادة من جرّاء السعى اللاهث وراء لقمة العيش فى مناكب الأرض.

وعلى هذا ، فمهما اختلفت كلمة النقاد حول رسالة الفن عمومًا ، والشعر خصوصًا فسوف تبقى للشعر رسالة وغاية بأن الفن للفن ، أو من قال بأن الفن للحياة كما أن رسالة الشعر ودوره لا ينتهى أبدًا ، حيث يبقى الشعر ما بقيت حياة نابضة ، إذ الشعر يعيد إلى النفس توازنها ، ويعمل على إزاحة الفوضى الشعورية من النفس أيضًا ، كما أنه يعيد إلى النفس سلامها الداخلى وأمنها حين يُوقظ فيها الشعور بالجمال ، وإذا ما استيقظ الجمال داخل النفس انعكس على هذا على الوجود من حولها ، وقد أصاب الشاعر حين قال:-

أيها المشتكى وما بك داءٌ ∴ كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً

والشعر من غايته تنمية هذه الحاسّة وتزكيتها ، فالله لم يمنح الإنسان هذه الموهبة عبثا ، والشاعر الفذ هو الذى يستشعر هذه الرسالة في عملها الشعرى ... ولله در العقاد حين قال :-

والشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ ∴ والشاعر الفذ بين الخلق رحمانُ

٤- تحليل النص الأدبى :-

لا نزال نقع في أخطاء جسيمة عند التعرض لقراءة الأعمال الأدبية وتحليلها ، فبعض الناس يُقدمون على النصوص الأدبية بأفكار ومعلومات قد استقرت في عقولهم منذ زمن ، ويحاولون تطبيق هذه الأفكار على النصوص التى بين أيديهم ، فينطلقون بفكرهم إلى النص وهذا خطأ... لأن المفروض أن ننطلق من النص - وليس إليه- بأفكار جديدة ، ورؤى مستمدة من واقعه .

إن تحليل قصيدة ما ، أو فقرة من قصيدة ، هذا يعنى : أن يقوم الناقد بما يقوم به الدارس في المعمل ، حين يحلل قطعة من النسيج مثلاً ، فيردها إلى العناصر التى تتكون منها ، وهما :-

الشكل والمضمون ، دون أن يأتي على الوحدة التى تجمع بينهما ، إننا باختصار نحاول أن نجد جوابًا لسؤلين : ماذا يقول الشاعر؟ وكيف عبّر عما يريد أن يقول ؟

والتحليل العلمى يتطلب لونًا خاصًا من المعرفة ، وهذه المعرفة تمكن الإنسان من الإحساس بالنص وإدراك مهابط الجمال والجلال فيه .

ولعل من بين هذه المعارف التى يجب الإلمام بها : **النحو و العروض** ، في المقام الأول من الأهمية ، حتى نحسن القراءة والفهم ، لأن الفهم جوهرى في خطواتنا الأولى ونحن نقرأ وكذلك علوم البلاغة والبيان والتى- من خلالها - نقف على دلالات الألفاظ ، ونعرف ما كان منها حقيقيًا أو مجازيًا ، وما ترمز إليه ، كذلك نحن في حاجة إلى شيء **فقه اللغة** ليُعيننا على إدراك ما أصاب هذه الدلالات من تطور ، وأخيرًا ينبغى أن نتسلح بشيء من الإلمام بتاريخ الأدب في خطوطه العامة فهو يساعدنا على تحديد المناخ الذى قيل فيه النص والظروف التى أحاطت بمولده ، والحياة التى اضطرب فيها الشاعر ، مما يُعين على فهم أفضل للقصيدة واكتشافها .

ومما ينبغى الإشارة إليه هنا : أن العلوم التى أشرنا إليها من قبل لا تكفى وحدها لتحليل جاد يتجاوز السطح إلى العمق ، ويحاول أن يقدم شيئًا بمستوى الإبداع الذى يُحلّله فلابدَّ أن نُلم الى جانبها بقدر كاف من العلوم الإنسانية الأخرى ، كالتاريخ العام ، والفلسفة وعلم النفس ، وكل تدخل - من هذه العلوم - مهما كان عارضًا ليس إلاّ إضافة ثانوية في خدمة النص ، لمعرفة أفضل ، وفهم أوضح ، حتى تبلغ رسالة المبدع غايتها في نقل ما أحسَّ به من انفعال ، وما حققه من فن ، أى : أن هذه الإضافات لا يمكن أن تحل مكان النص نفسه أبدًا ، وعلى أية حال ، فإنه يوجد في كل قصيدة عظيمة شيء غير مفهوم ، مهما عرفنا عن شخصية الشاعر وحياته ، ودرسنا من علوم ومعارف ، وهذا الشيء ربما يكون الأكثر أهمية في الشعر .

مراحل تحليل النص الأدبى:-

لا نصل إلى الغاية التى نريدها من أى عمل ، إلاّ بعد المرور بعدة مراحل مترابطة ، وتحليل النص الأدبى يمر- كذلك - بعدة مراحل حين نريد أن نحلله ، وإليك أهم هذه المراحل:-

١. القراءة الواعية المتأنية :-

أول ما يقوم به الناقد - بالطبع - قراءة صحيحة ، ومتأنية للنص ، وتقسيمه إلى فقرات إذا كان طويلاً ، دون أن نسقط من حسابنا أن الفقرة جزء ينتمى إلى كل وخلال القراءة يجب علينا أن نركز على ثلاثة معالم جوهرية :-

- المَعْلَم الأول : توضيح الألفاظ الغامضة ، ومعرفة ما يريد منها الشاعر بدقة ، دون أن نهمل أيًّا منها ، وكثيرون من القراء السطحيين أو العجلين ، يعتقدون أن ما يفهمونه من ألفاظ النص يكفى ، وأن البقية ما هى إلاّ هوائيات شاعر ، وخيالات مبدع يمرون عليها غير مكترثين ، وهم مخطئون في ذلك ؛ لأن الكلمة في القصيدة يمكن أن تتجاوز دلالتها المحددة لها في الاستعمال الشائع ، أو الذى تمنحه لها مفاهيم اللغة وذلك حين يدفع الشاعر في شرايينها بدم جديد .
- المَعْلَم الثاني : التقاط الجمل أو الفقرات أو الأبيات ، التى يمكن أن نجد فيها الملامح التقليدية للشاعر ، والأشكال ذات المغزى ، والعبارات المهمة ، والأشد ارتباطًا بالموضوع ، أو لأنها تعكس في قوة وتوتر خصائص أسلوبه ، لأن قراءة النص تتجاوز الحروف المطبوعة التى نراها بعيوننا ، فثمة مشاعر وأحاسيس ، وحياة ترقد وراءها ، والقارئ الفاهم المتأنى وحده هو الذى يستطيع أن يفك ألغازها ، وأن يقع على ما وراءها ، وأن يكشف العالم الفكرى للشاعر كاملاً .
- المعلم الثالث : أن يمسك القارئ- عند القراءة- بأية ملاحظة أخرى تلمع في عقله أو وجدانه ، مرتبطة بموضوعه ، وتلقى ضوءًا على اختياره ، وتُسهم في توضيحه ، وتُعينه .

٢. تحديد زمان ومكان النص :-

بعد أن ننتهى من القراءة الواعية المتأنية للنص ، يأتى دور آخر ، أو مرحلة أخرى يمكن أن نسميها : وضع النصّ في موضعه زمانًا و مكانًا ، فنحدد عن طريق العصر : التيار الأدبى الذى كان سائدًا على أيامه : عصر طبع أو صنعة ، أصالة أو تقليد ، تجديد

أو محافظة ؟ وأى التيارات غلب عليه : الرومانسية أو الواقعية ، أو غيرها من المذاهب ، وأى القضايا شغلت أهل عصره : ذاتية ، أو اجتماعية ، أو سياسية ، أو لا مبالاة .

ومن النادر أن يشير الشاعر إلى الظروف التاريخية والثقافية والاجتماعية التى أحاطت به ، وقُدِّر له أن يعيشها ، وتحديد العصر يضع يدنا على الاتجاه الأدبى الذى ينتمى إليه الشاعر ، أو المذاهب الأدبية التى خرج عليها ، ولم ينتم إلى أىٍّ منها .

وهناك لحظات تاريخية غير ومعقدة ، كما هو الحال في أيامنا ، حيث تتلاقى الاتجاهات وتتقاطع وتتصارع ، ويصعب معها تحديد التيار الذى ينتمى إليه الشاعر بحسم وقد نلتقى في إبداعه بأكثر من اتجاه - فمن المفيد إذن في هذه المرحلة من تحليل النص أن نعرف شيئًا من ترجمة الشاعر ، وعن اللحظة التاريخية التى عاش فيها ، والمدرسة الأدبية التى ينتمى إليها .

٢. دراسة الشكل والمحتوى :-

عندما نفهم القصيدة ، وندرك جمال ما تنطوى عليه من أفكار ومشاعر وغايات ، نبدأ في تحليلها ، أى : نبدأ في دراستها ، والتوصل إلى عناصرها المختلفة حتى نبلغ الفكرة الجوهرية التى تقوم عليها (المحتوى والمضمون) ونضع يدنا على إيقاعها الخفى (الشكل) وفي هذه المرحلة نعرض للشكل والمحتوى ، ندرسهما ، دون أن ننسى ولو للحظة أنهما مرتبطان لا ينفصلان ، ودون أن نفقد النظرة الشاملة للقصيدة ، فقيمة أى جزء من القصيدة عندما يكون في خدمة الشكل ، وبقدر دوره في توضيح الصورة الشاملة .

وحين ندرس المحتوى ، نحدد أولاً موضوع القصيدة بإيجاز ووضوح ، وهو ما يمكن أن يكون عنوانًا لها ، والقصيدة عادة تعالج مجموعة من القضايا أو الأفكار ، ويجب على الناقد توضيح ذلك بدقة وبلا إطناب ولا ثرثرة .

والشعراء فى توضيح أفكارهم ألوان وأنواع : منهم من يقدم لك المشاعر الخالصة ، ومنهم من يقدم أفكاره وما يريد أن يقوله دون خوف أو خفاء ، وهناك من يدور حول الفكرة ، يُومئ بها ولا يصرح ، خوفًا أو رهبة أو فنًا ، ومنهم من يعبر عن نفسه باعتباره فردًا ومنهم من يذوب في المجتمع ، ويحمل هموم أمته ، يصبح لها صوتًا .

وفى الشكل نتعرف كيف عبر الشاعر عما يريد أن يقول ، وأى القوالب اتخذه مجرى لإبداعه الفنى : الشعر الغنائى ، أم المسرحى أم الملحمى ولكل فن أصوله وطرائقه .

وعن خصائص أسلوبه - وهو أمر ذاتى ، فيه نفس الشاعر ، والأسلوب الرجل كما يقولون - ندرس : ألفاظه وموسيقاه ، وطريقة الشاعر في تكوينها ، وأن ندرس الموسيقى وفقًا لعلم العروض ، لنرى هل وُفّق الشاعر في اختيار هذا البحر أو ذاك ، وهل جرى على النمط المعتاد في الشعر العربى ، أو سار على النحو المستحدث فيما بعد ، كالشعر المرسل ، والموشحات .

وعلينا أن نلحظ كذلك ما يسمى بالموسيقى الداخلية ، وهى لون من الموسيقى له أسرار خفية ، ولكنها لا تخفى على الناقد المتمكن .

إلى هذا الحد نكون قد وصلنا إلى تمام خطوات التحليل الأدبى والعلمى للنص الأدبى بطريقة موضوعية ، بحيث لا يُشرك الناقد فيها رأيه ، ولا يقحم نفسه أو ذوقه ، وهذه مهمة جليلة تطلب من ، وهى أن يجرد نفسه من أى هوى حين الإقدام على دراسة الأعمال الأدبية ، وتحليلها ، والحكم عليها بالجودة أو بالرداءة .

فقد تعودنا أن نكيل الثناء على النصوص الأدبية ، أو لمجرد معرفتنا بصاحب النص ، أو تعاطفنا معه ومع طريقته الفنية ، وهذا خطأ فادح ، يبعد العمل الفنى والنقدى عن غايته ، وينحو به منحى المجاملات ، أو التقريظات غير المفيدة .

ويمكن للناقد في تحليله أن يسير على هدى مذهب نقدى معين ، من بين المذاهب الكثيرة التى يعرفها النقد الأدبى المعاصر ، وهى مذاهب انتهى إليها أصحابها في ضوء حركة الشعر الأوربى واقعًا وتاريخًا ولغة ، وتطبيق واحد منها بعينه وبصرامة على الشعر العربى لا يتأتى ، وفي كل منها ما يصلح له وما يتنافى معه ومع طبيعته ، ومع ذلك فعلينا أن نفيد منها جميعًا في عملنا النقدى ، لكن دون أن نفقد إرادتنا على التمييز والاختيار ، ولكل منها مخاطره ، ومهمة المُعلم ك ان يهدى طلابه إلى مخاطر النقدن حين يدفع بهم إلى ممارسة التحليل تدريبًا .

ولعلنا - بذلك - نكون قد وفقنا في عرض خطوات تحليل النص الأدبى بطريقة ميسَّرة ، يفيد منها الدارس والمعلم معًا .